المحاضرة الأولى:

مدخل إلى الأدب الصوفي الجزائري:

أولا وقبل الولوج إلى الحديث عن نشأة التصوف في الجزائر، يجدر بنا أن نقف وقفة تاريخية نفصل فيها عن ماهية التصوف لغة واصطلاحا، وبداياته الأولى في المشرق العربي.

1. التصوف لغةً:

اختلف الآراء والتعريفات المحددة لماهية التصوف وأصل جذرها اللغوي، إذ ربطها البعض بلبس الصوف، فهي تختص بالمظهر الخارجي للصوفي، فيما يذهب رأي آخر إلى نسبتها إلى ما يختلج في الدواخل من نقاء النفس وصفائها فربِطت بكلمتي "صفاء" و"صفَة[1] "، في حين يرى آخرون أن أصلها إغريقي محض.

فالرأي الأول يرجع سبب تسميتهم بالصوفية بقولهم: " إنما سموا صوفية للبسهم الصوف " ، و" نُسب الصوفي إلى لبس الصوف؛ لعلاقة ذلك بالزهد "، وإشارة إلى الملبس الخشن وللدلالة عن الانقطاع عن الدنيا والبعد عن ملاذها، واقتداءً بالرسول و" ليصلح لهم الاقتداء بتواضع الرسول" صلى الله عليه وسلم، كما يقول زكي مبارك. ولهذا الرأي كثير من المؤيدين كصاحب المقدمة ابن خلدون الذي يقول " الأظهر إن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف، وهم في الغالب مختصون بلبسه، لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف"، ومع هذا نجد بعض المعارضين لهذا الاشتقاق، فأبعدوا نسبة هذا اللفظ إلى المظهر الخارجي أي إلى الملبس، ونلمس ذلك في قول الشاعر:

تَنَـازع النَّـاس في الصـوفي واخْتَلَفُـوا قـدما ظَنُّـوه مشْـتَقا مـن الصـوف
ولَسـتُ أنْحـلُ هـذا الاسـم غَيـر فَتَى صـفَا فَصـوفي حتى لُقـب "الصـوفي

وهي إشـارة إلى " الصـفاء "، وهـو رأي الفريـق الثـاني الـذي نسـب لفـظ " صـوفي " إلى صفاء السريرة، وفي ذلك يقول أبو عبد الله الطوبي:

لَـيس التَّصـوفُ لُـبس الصـوف تَرقّعـه ولاَ بكـــاءك إن غَنَّـــى المغَنَّونَـــا
ولاَ صـــياح ولاَ رقْـــص و لاَ طَـــرب ولاَ تَغَـاشٍ كَـأن قَـد صـرتَ مجنُونَـا
بـلِ التّصـوفُ أن تَصـفُو بـلا كَـدرٍ وتَتَّبِـع القـرآن والحـقَّ والـدينَا
وأن تُـــرى خَائِفًـــا الله ذَا نَـــدم علَـى ذُنُوبِـك طُـولَ الـدهرِ محزونـاَ

وهذا الأمر أشار إليه " الكلاباذي في كتابه " التعرف لمذهب أهل التصوف " ، في قوله: " قالت طائفة: إنما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها ونقاء آثارها"[2] ،إذ أنّ "جمهور الصوفية يذهبون إلى القول بأن لفظ صوفي مشتق من الصفاء، وأن الصوفي هو أحد خاصة أهل الله الذين طهر الله قلوبهم من أكدار هذه الدنيا".

وقريب من هذا المعنى، نسبة لفظ " الصوفي " إلى كلمة " الصف " " فكأن الصوفية في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى" ، في حين ينسب البعض هذا اللفظ إلى صفة مسجد نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم.

وهناك آراء أخرى منها الذي يبعد لفظ "صوفي" عن الأصل العربي الإسلامي، إذ نسب إلى كلمة "سوفيا" في اليونانية معناها الحكمة، وانطلاقا من هذه الكلمة أطلق على الفيلسوف اسم" فيلا سوفيا" إشارة إلى " محب الحكمة" وهو رأي غير صحيح حسب بعض الآراء.

إلى جانب هذه الآراء يذهب البعض إلى أن أصل الكلمة يعود إلى " أصول هندية وإيرانية وهيلينية ويهودية ومسيحية وتبين بالدراسة ... أن التصوف ... أصوله إسلامية"

إذن وبعد عرضنا لهذه الآراء والمفاهيم المختلفة إلى قول جامع بين المظهر والجوهر ليحيلنا إلى التعريف الاصطلاحي للتصوف انطلاقا من مصدر لفظ " صوفي" ، فالصوفي هو " من لبس الصوف على الصفاء، وأطعم الهوى ذوق الجفاء، وكانت الدنيا منه على القفاء، وسلك منهاج المصطفى[3]" ، أي أنّ لبس الصوف وحده لا يكفي؛ بل حتى " إذا صحت نسبة الصوفي إلى مادة الصوف من حيث المبنى اللغوي فإن لابس هذه المادة لا يكون صوفيا حتى يتخلق بأخلاق الأنبياء عليهم السلام أو الأولياء والصالحين في المظهر والمخبر"[4]، ومن هذا المنطلق نعرج على التعريف الاصطلاحي للتصوف.

2. <u>التصوف اصطلاحا:</u>

اختلفت الرؤى وزوايا النظر في إعطاء تحديد واضح سهل للتصوف في معناه الاصطلاحي ذلك أنّ " التصوف لا يستقر له تعريف، فهو معقود بآراء المفكرين، والأدباء، والفلاسفة، والدينيين واللاّدينيين[5]" ، فهذا ابن خلدون يقول في مقدمته عن علم التصوف: "هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال

وجاه، والإنفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية و المتصوفة"[6]، فإنه هنا يعطي جملة من التبريرات التي جعلت التصوف قائم بذاته، كما يشير محي الدين بن عربي وهو من أقطاب التصوف (توفي حوالي 840هـ) إلى أن التصوف سمو أخلاقي في قوله ": قال أهل طريق الله التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف"[7] ، ويظل التصوف " فلسفة حياة تهدف إلى الترقي بالنفس أخلاقيا وتتحقق بواسطة رياضات عملية معينة تؤدي إلى الشعور في بعض الأحيان بالفناء في الحقيقة الأسمى، والعرفان بها ذوقا لا عقلا وثمرتها السعادة الروحية ويصعب التعبير عنها بألفاظ اللغة العادية "[8].

ومما زاد في صعوبة تحديد مفهوم للتصوف أنّه " نزعة روحية " ، وكل ما كان له صلة بالروح لا يمكن حده بتعريف، وليس لنا إلا أن نقول بأن التصوف " تجربة ذاتية وظاهرة باطنية روحية خاصة تتميز بالصدق وقوة الانفعال والإخلاص في التوجه إلى الله، والسعي الدائم للتحرر من أسر المادة والجسد، والتخلق بالفضائل"، وإن كان السمو الأخلاقي، وحب الله والفناء فيه، والمعرفة الذوقية التي تبعد الصوفي عن المرئي لتأخذه إلى اللاّمرئي؛ هي أسس واضحة للتصوف؛ فإن التعاريف متشعبة ذلك أن كلا استند في ذلك على " ما يوافق مشربه، وصدر في ذلك عن ذوقه"[9]. الصوفي – إذاً – يعيش تجربة وجدانية، هي التجربة الصوفية وطبيعتها " تتمثل في حب الله والاتصال بحكمته "، فالتصوف يقوم بهذا على الحب الإلهي.

3. <u>الأدب الصوفي في الجزائر – نشأته و تطوره:</u>

لقد ارتبط ميلاد التصوف بنشأة الزهد، وإذا كانت نشأة الزهد كانت خلال القرنين الأول والثاني للهجرة، فإن الصوفية برزت معالمها خلال القرن الثالث إلى الرابع الهجري لتشهد بعدها تطورات؛ يفصل محمد الصادق إبراهيم عرجون ، في كتابه " التصوف في الإسلام هذا القرن فيقول:" ففي القرن الأول نبتت بذرتها على أيدي الزهاد والعباد وأهل الورع و التقوى (...)، ودخل القرن الثاني كانت الصوفية قد قامت على ساقها غضة الإهاب، لم تستكمل كيانها وبدأ أهلها يتحدثون عن المراقبة، والإحسان، والإخلاص، والتقوى ومحاسبة النفس، ورعاية حقوق الله، والصدق في معاملته، وبدأ الناس يرون فيهم لونا جديدا للعمل والجد (...)، وكانت أحاديثهم في التوحيد والإخلاص ومراقبة النفس، ومن هنا نبع عنهم ما سموه بعلم الباطن وهو عند أكابرهم من السابقين ليس إلا زبدة العمل بالشريعة (...) فمن علم الشريعة وعمل بما علم، علمه الله علوما كثيرة وأفاض عليه معارف لا نهاية لها ."

وفي القرن الثالث الهجري ظهرت الصوفية كطبقة أو نزعة خاصة قائمة بذاتها " فلم يكد ينصرم القرن الثاني؛ حتى كانت الصوفية والمتصوفة طائفة من خلاصة المسلمين، قائمة بذاتها بين الطوائف الإسلامية، لها خصائصها ومعالمها التي يستدل بها عليها (...)، ولها حياتها الخاصة التي تقوم على رياضة النفس، وتهذيبها وتخليصها من عبودية الغرائز، وتصفيتها من كدورات الأهواء والرذائل، ولها وراء ذلك مجاهداتها في عبادة الله وذكره، وتذكير عباده بآلائه ونعيمه (...) وفي هذه المرحلة كان أخص ما يتحدث فيه أئمتهم: أسرار التوحيد، ودلائل الربوبية ولم تخرج أحديثهم قطُّ عن السنن الأقوم المعتمد على الأصول الشرعية(...).

وفي القرن الرابع أضحت الصوفية حقيقة كبرى من الحقائق التاريخية الوجودية في حياة المسلمين، استكملت جميع مقوماتها، وأصبحت لها مدارسها الخاصة، ومحافلُها الحاشدة، ومصطلحاتها العلمية، وطرائقها في التفكير، ومناهجها في التربية والسلوك ". وهذا التطور الذي شهده التصوف منذ القرنين الأول و الثاني إلى القرن الرابع كان على أيدي الزهاد الأوائل، فمنذ البدء كان " الحسن البصري (المتوفى عام 110هـ- 720م)، وهو الذي يعد رائد التصوف، ينزع في سلوكه إلى حياة روحية خالصة، ويتخذ من الطقس الديني طريقة معرفة وكشف "، كما نجد أيضا إبراهيم بن أدهم (المتوفى سنة161ه)، والفضيل بن عياض (المتوفى سنة187ه) و رابعة العدوية (المتوفاة سنة 185ه) ، وكل هؤلاء هم من أوائل الزهاد الصوفية في المشرق العربي "وكان ذو النون المصري (المتوفى سنة 245ه) أكبر شخصية شكلت المذهب الصوفي و طبعته بطباعة الدائم ".

أما في القرن الخامس فيمثل فيه ظهور التصوف الديني الأخلاقي؛ والذي يطلق عليه اسم "التصوف السني"، والذي استمد من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وخير من يمثل هذا الاتجاه في الوطن العربي الإمام الغزالي، أما القرنان السادس والسابع الهجريين فقد شهدا ظهور التصوف الفلسفي الذي يستند على الذوق والنظر العقلي، ويمثله في هذين القرنين أقطاب التصوف مثل السهروردي (قتل بأمر من صلاح الدين الأيوبي في حلب سنة 587ه)، وابن الفارض شاعر الحب الإلهي (توفي سنة 632ه) ، وجلال الدين الرومي (توفي سنة 672ه) ، وما ميز هذين القرنين السادس والسابع الهجريين تلقي الصوفية لكثير من الفلسفات التي غزت العالم الإسلامي، فبدأ كلامهم عن القطب، والقول بكشف حجاب الحس ، و" قتل نزعات النفس، وإماتة قوى الجسد حتى تقوى الناحية الروحية في الإنسان (...) وظهرت أيضا فكرة الاتحاد والحلول والوحدة ونظرية الإنسان الكامل (وهذه المصطلحات لنا عودة إليها في موضع آخر) (...) أما بعد ذلك

فالتصوف لم يعد أن يكون شرحا لهذه النظريات أو اختصارا لها أو تعليقا عليها، إلى غير ذلك،(...) وإن كان التصوف في القرون المتأخرة، قد قام بدور كبير في تكييف الحياة الاجتماعية. ".

ويمكن أن نلخص المراحل التي مر بها التصوف على هذا النحو:

المرحلة الأولى: تميزت بالزهد **والبعد عن الحياة المادية** والتسامي عن ملذات الحياة، وهذا في القرنين الأول والثاني الهجريين (817م).

المرحلة الثانية: شهدت إغراقا في الزهد والتقشف، وتمتد من بداية القرن الثالث إلى أواسط القرن الرابع الهجريين (9/ 10 م).

المرحلة الثالثة: مرحلة الاقتراب من التصوف، وكانت البداية للأفكار الصوفية والخيالات، وهذا في القرن الرابع الهجري (10م).

المرحلة الرابعة: تعد مرحلة اكتمال تكون التصوف، بتنظيمه، وتشكل الطرق الصوفية، والخوض في الكرامات، وتمتد هذه المرحلة من أواسط القرن الخامس الهجري (11م)

المرحلة الخامسة: وهي مرحلة المبالغة في ادعاء الكرامات، والاهتمام بها، ويطلق عليها البعض مرحلة الجنون و الهذيان.

هذا عن نشأة التصوف في المشرق؛ والتي يمكن أن نعكسها على المغرب العربي بما فيه **المغرب الأوسط**، فالبداية أيضا كانت زهدية كشأن أي تجربة روحية تبدأ بالزهد، وكما ذكرنا سالفا فمنذ القرن الأول وكما كان الحسن البصري يعيش حياة الزهد والتبتل، نجد في المغرب العربي، وفي القيروان بشكل خاص إسماعيل بن عبيد يوغل في التبتل إلى جانب محمد خالد بن عمر التجيبي وكلهم عاشوا إلى بدايات القرن الثاني الهجري، " ولعل أبرز رائد في الطريق الصوفي كان أبو علي شقران بن علي الصوفي القيرواني (توفي عام186هـ) اشتهر أمره في المشرق والمغرب على حد سواء، فأتاه الناس من كل مكان ليأخذوا عنه أصول الطريقة ... في نفس الفترة عاش مع أبي علي شقران صوفي آخر هو محمد بن مسروق (توفي عام 180هـ) "وكما أنّ الحياة الزهدية ارتبطت في المغرب العربي بالفتح الإسلامي؛ فإن تيار التصوف وصل إلى هذه الأقطار" بوساطة النزوحات ونسخ المخطوطات أو إرسالها إلى هذه الربوع، أو إحضارها عن طريق قوافل التجارة التي كانت ترحل إلى المشرق العربي، وتوجه الوفود تلو الوفود من العلماء إلى تلك الديار العربية التي كانوا يمرون عليها في رحلاتهم إلى الديار المقدسة بغية أداء مناسك الحج(...)، وذلكم كله أتاح لهم الالتقاء بشيوخ " من أعلام الزهد والتصوف.

وإن كان الغوص في تاريخ التصوف في المغرب العربي هو من الصعوبة بما كان؛ فإنّ العدد الهائل لأعلام التصوف الذين عرفتهم الجزائر خاصة بتلمسان وبجاية خير شاهد مساعد للوصل أو للاقتراب على الأقل من تحديد تاريخ ميلاد التصوف بهذه الرقعة، وفي حقيقة الأمر التبادل الثقافي بين أعلام الثقافة والفكر والأدب عبر المراكز الثقافية المنتشرة عبر المشرق والمغرب؛ كان لها الدور البارز في طي المسافات، وانتقال التيارات والأفكار، وقد كان الاستعداد الفطري واضحا لدى أهل المغرب لتلقي التصوف، فكان بذلك عدد الصوفية كبيرا رغم ما تعرض له هؤلاء من محاربة من قبل الفقهاء الذين كانوا يعنون بعلم الظاهر فيما يذهب الصوفية للقول بعلم الباطن.

وعن التصوف في الجزائر فقد أشرنا سالفا أن المغرب الأوسط عرف حركة زهدية بداية من القرن الثاني الهجري تحت ظل الفتوحات الإسلامية، " تخمرت عبر قرون، وتمخض عنها ميلاد الحركة الصوفية التي بدأت معالمها تتضح في القرن السادس الهجري – الثاني عشر الميلادي – بالنسبة للتصوف السني، وبدايات القرن السابع الهجري – الثالث عشر ميلادي – بالنسبة لتيارات التصوف الفلسفي ".

هذا ورغم اعتبار القرن السادس الهجري، هو قرن اكتمال تشكل التصوف ثم تطوره في القرن السابع، بل ومن الدارسين من ربطه بدولة بني زيان، ومع هذا لا يمكن إغفال الإشارة إلى أن بكر بن حماد التيهرتي- وقد عاش في القرن الثالث الهجري– قد عبر عن تجربته الروحية فكان بشعره الكثير من الزهد، كما لم يغب عنه التصوف ومهما يكن من أمر؛ " فالتصوف في المغرب الأوسط كانت نشأته زهدية حوالي القرن الثاني الهجري ومع تعاقب القرون ولد التصوف ليكتمل تشكله حوالي القرن السادس الهجري إلى السابع الهجري لتكون بحق القرون الموالية في الجزائر قرون تصوف، الأمر الذي يعبر عنه العدد الهائل من أعلام التصوف الذين صنعوا الحياة الثقافية بكل فعالية إبان العهد الزياني من بينهم: " أبو مدين شعيب التلمساني"، "عفيف الدين التلمساني" "عبد الرحمان الثعالبي" ، وغيرهم .. وهؤلاء الأعلام في انتمائهم إلى التصوف هم ثلاثة تيارات: التصوف السني، التصوف الفلسفي، إلى جانب التصوف السني الفلسفي، فالتصوف السني يلتزم أصحابه بالقرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، والتمسك بأخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه مسلم وصحابته رضي الله عنهم، والتصوف الفلسفي والذي يعمد أصحابه إلى اتخاذ التصوف وسيلة لإدراك المعارف كما خاضوا في قضايا الحلول والوحدة، والإشراق وغيرها، أما التصوف السني الفلسفي فيجمع أصحابه بين سمات الاتجاهين"[10]. وهؤلاء من صوفية، وزهاد؛ مهما كانت

اتجاهاتهم عمدوا إلى فن الشعر للتعبير عن مواجيدهم، وبالتالي " نشأة الشعر الصوفي في الجزائر يمكن تحديدها ببدايات التصوف كتجربة وجدانية؛ ذلك أن تراثنا العربي مليء بالأمثلة لأسماء تعانقت بدواخلها التجربة الصوفية بالتجربة الشعرية (رابعة العدوية ، وابن الفارض) وغيرهما من الذين خُلِّدت أسماؤهم في عالمي التصوف والشعر، إذ لا يمكن الفصل في تصنيفهم في باب الشعراء أو باب الصوفية، والشأن نفسه إذا تحدثنا عن أعلام التصوف في الجزائر فقد كانوا شعراء أغنوا التراث الجزائري بنتاجهم الشعري الذي كان غاية في الإبداع، ليثبتوا أن الأدب الجزائري ثري، وليسهموا في التأريخ لفترة هامة من تاريخنا تميزت بالازدهار الثقافي، الفكري والأدبي خاصة انطلاقا من القرن السابع إلى التاسع الهجري"، وارتباط صوفية الجزائر بالشعر ليس غريبا لعمق التجربتين الشعرية والصوفية– أولا وثانيا لأنه "يمكن القول إن المثقفين عموما من فقهاء ومحدثين ونحاة ولغويين وحتى فلاسفة وأطباء ورياضيين كان لهم حظ في فن الشعر والأدب وإن كان هناك تفاوت من واحد لآخر" ، والصوفية هم الأكثر قربا من الشعر لتماثل التجربتين – كما ذكرنا سالفا" و قد يكون من أبرز مجالات التعالق بين التجربتين محاولة تجاوز الواقع و تحقيق نوع من الاتحاد بمظاهر الكون"[11].

مجمل القول إنّ الشعر الصوفي في الجزائر كما في المشرق أساسه كان زهدا؛ فالزهد أساس التصوف، وبالتالي بوادره كانت منذ القرن الثاني الهجري وبدأ شيئا فشيئا يتبلور بمرور القرون، فكان الاكتمال في القرن السادس الهجري بالنسبة للتصوف السني والقرن السابع بالنسبة للتصوف الفلسفي، واتخذ الصوفية من الشعر وسيلة مثلى للتعبير، فالتصوف تجربة وجدانية وهو أيضا تجربة مميزة في الكتابة ، وهكذا كانت القرون الموالية للقرن السادس الهجري قرون شعر وتصوف حقا في الجزائر، فقد عج القرن السابع الهجري " بأسماء جزائرية تعود أصلا إلى بيئات ثقافية إبان هذه الفترة في كل من مليانة، وبجاية، وزواوة و تلمسان، وهؤلاء صاغوا مع زملائهم من فاس ومراكش قلادة مضيئة في جيد تصوف القرن المذكور " وما يليه، إذ ما إن يقترب القرن العاشر الهجري حتى يبدأ هذا الوضع في التراجع، حيث شهدت المنطقة هجرة الأدباء، فتقهقر مستوى الشعر، فيما أخذ التصوف منحى آخر بانتشار الطرق الصوفية، كما فشى التصوف الحقيقي والكاذب أيضا.

المصادر والمراجع (الإحالات):